بوادر التفكير اللغوي عند مفسري القرآن الكريم
(عبدالله ابن عباس رضي الله عنه أنموذجا)

د.سليمة شعيب
جامعة سيدي بلعباس

حرص المسلمون منذ نزول القرآن الكريم على تفسير آياته ومعرفة معاني ألفاظه والمحافظة عليه من التحريف واللحن ، فنشأت العديد من العلوم بين دفتي هذا النص المقدس ،ويعد القرآن الكريم مبعث الدراسات اللغوية والأدبية ، والدافع الذي جعل العلماء يقبلون على هاته الدراسات ويفرعون لها ، ويعطونها من عنايتهم واهتمامهم ، إلا أن ذلك لم يتهيأ لهم دفعة واحدة ، فقد بدأت معالمها تتجلى منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم في تلقينه الدقائق اللغوية لصحابته إذ روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :" أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه "[1] .والإعراب في هذا النص الشريف معناه معرفة دلالة الألفاظ .

بعد أن أخذ اللحن يشيع على الألسنة منذ عصره نجده صلى الله عليه وسلم يقول حينما سمع رجلا يلحن في كلامه :" أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل "[2].

لا شك أيضا أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا مراجع الأمة بعد رسول الله ، إذ كانوا حاملي لوائه ومصادر شريعته إلى الملأ وكانوا على درجات من العلم والفصاحة .

اشتهر بالتفسير من الصحابة أربعة ، وهم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعبدالله ابن مسعود و أبي بن كعب و عبدالله ابن عباس الذي كان أصغرهم وأوسعهم باعا في نشر التفسير ، فهو حبر الأمة وترجمان القرآن وأعلم الناس بالتفسير تنزيله وتأويله تلميذ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ،فقد قال عنه سعد بن أبي وقاص:"ما رأيت أحداً أحضر فهماً ، ولا ألبّ لبّاً ، ولا أكثر علماً ، ولا أوسع حلماً من ابن عباس "[3].

ولا غرو في ذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قد دعا له بقوله : " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"[4]. ولاريب أن الله تعالى استجاب دعاء رسوله الكريم ، وبفضل هذا الدعاء كان ابن عباس فقيها في الدين عالما بمعاني كتاب الله وراويا لأحاديث المصطفى .

إن القارئ المتمعن للنصوص المروية عن ابن عباس والمبثوثة في كتب التفاسير يلاحظ أنه كان على اطلاع واسع بالعربية ومتضلعا فيها ، قال مسروق عنه :" كنت إذا رأيت ابن عباس قلت أجمل الناس ،فإذا نطق قلت أفصح الناس ، فإذا تحدث قلت : أعلم الناس " [5] ولغزارة علم ابن عباس وتبحره في العلم ، وسعة اطلاعه أسباب في فصاحته وطلاقة لسانه ، كما قال عنه عبيدالله بن عتبة بن مسعود :" كان ابن عباس قد فاق الناس بخصال العلم... ولا أعلم بشعر و لا عربية ولا تفسير للقرآن ولا بحساب ولا فريضة منه "[6]. فهو أول من وضع البذرة الأولى للدرس اللغوي إذ ظهرت بوادر هذا الدرس عن طريق ملاحظات وتنبيهات لغوية .

تعددت الملاحظات اللغوية التي أشار إليها عبدالله بن عباس رضي الله عنه من إرهاصات نحوية وبلاغية ومعجمية ، غير أن هذه المسائل التي ذكرها نشأت متداخلة بين فروعها قبل أن يفرق المتأخرون بينها من نحو وصرف وفقه لغة وغيرها من العلوم العربية ، ومن خلال النظر في مروياته التي تضمنتها كتب التفاسير واللغة سأحاول أن أشير إلى أهم معالم الفكر اللغوي عنده .

أولا : نشأة اللغة

احتوى الفكر العربي على كم كبير من الروايات والأخبار المتعلقة بنشأة اللغة ، وأدت اجتهادات العلماء إلى بروز نظريتين، الأولى تقول بأن اللغة توقيف (وحي سماوي) والثانية ترى أنها اصطلاح وتواضع بين البشر ، والنظرية التي ترى أن اللغة توقيف وإلهام تتلخص في أن الله سبحانه وتعالى لما خلق الأشياء ألهم آدم عليه السلام أن يضع لها أسماء فوضعها وقد اختار جماعة من علماء العربية هذا المذهب واستدلوا بما استدل به ابن عباس ومن هؤلاء ابن فارس [7].

لم يكتف ابن عباس بذكر ماهية الأسماء التي علمها الله سبحانه وتعالى لآدم عليه السلام بل أكد على" أن آدم عليه السلام كانت لغته في الجنة العربية ، فلما عصى سلبه الله العربية فتكلم السريانية فلما تاب رد الله عليه العربية " [8]. وهذه أوليات ترجع إلى ابن عباس إذ يمكن القول أنه أول من فتح المجال للبحث العربي في نشأة اللغة .

ثانيا :شرح المفردات

نزل القرآن الكريم بالفصحى من لغة العرب ، وما أشكل من فهم المعاني لابد لحلها من مراجعة الفصيح من كلام العرب المعاصر لنزول القرآن الكريم، وكان ابن عباس صاحب ذوق رفيع وثقافة لغوية عالية ، فكان يقول : " الشعر ديوان العرب ، فإذا خفي علينا حرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه "[9].

ويقول أيضا :" إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب " [10]. وفي شرحه لمفردات غريب القرآن كان يلجأ إلى تعريف المفردة العربية ببيان معناها عن طريق الاستشهاد بالشعر العربي نحو مسائل نافع بن الأزرق ، وقد استشهد بحوالي مئتي بيت شعر ، والطريقة تلك تزيد من تثبيت المعنى في الأذهان وتغني المادة .

يتناول ابن عباس كلمة غريبة من آية فيشرحها بما لايزيد عن كلمة أو كلمتين ، ولو جمع ما أثر عن ابن عباس في هذا الشأن لكوَنَ معجما صالحا ، وفيما يلي نماذج من الشرح اللغوي للمفردات عنده في مسائل نافع بن الأزرق :

"أخبرني عن قوله تعالى "برب الفلق" ، قال الصبح إذا انفلق، وقال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم أما سمعت زهير بن أبي سلمى يقول :

فارج الهم مسدولا عساكره كما يفرج غم الظلمة الفلق .

قال نافع بن الأزرق لابن عباس أخبرني عن قوله تعالى الفلك المشحون قال السفينة الموقرة الممتلئة ، قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول عبيد بن الأبرص:

شحنا أرضهم بالخيل حتى تركناهم هم أذل من الصراط

وأيضا أخبرني من قوله تعالى " وهو مليم" قال : المسيء المذنب ، قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم أما سمعت قول أمية بن أبي الصلت :

من الآفات ليس لها أهل ولكن المسيء هو المليم

هذه نبذة عن مسائل نافع بن الأزرق المشهورة لابن عباس ، وقد وردت جملة من تلك المسائل في كتاب القرآن لأبي عبيد وغيره ، وإيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ، والمعجم الكبير للطبراني ، وساقها السيوطي بتمامها إلا بضعة عشر سؤالا في كتابه الإتقان في علوم القرآن [11].

في تفسير غريب القرآن بوجه عام ، ذكر فؤاد سزكين أن كتابا لابن عباس رضي الله عنهما بتهذيب عطاء بن أبي رباح يوجد مخطوطا في مكتبة عاطف أفندي بعنوان غريب القرآن[12].ويرى بعض الباحثين أن الكتب المنسوبة إلى ابن عباس

رضى الله عنه كان بعضها على الأقل من تأليفه هو ، وإن صح نسبة الكتاب إليه فتعد هذه البادرة أولى للحركات العلمية اللغوية التي عرفها العرب إذ كان الغرض منها تفسير ما جد من المفاهيم حملتها كلمات وردت في القرآن الكريم.

بينما يرجح آخرون أنها من تدوين الرواة على غرار ما صنعه السيوطي ، إذ استخرج أقوال ابن عباس رضي الله عنه في تفسير مفردات القرآن الكريم مما روي عن طريق بن أبي طلحة ، فجمعها في فصل مفرد . و أيا كان الأمر فلا شك أن مرويات ابن عباس رضي الله عنه هي التي مهدت للتدوين في علم غريب القرآن منذ وقت مبكر ، وهيأت المادة الأولى لكل من ألف فيه .

كما يعد هذا العمل النواة الأولى لنشأة المعجم العربي، فقد أكد العلماء أن جميع مظاهر المعجم العربي التاريخية من رسائل مفردة وغريب القرآن ودلائل الإعجاز ومعاجم مختصة أو عامة قد وضعت في أول أمرها تفسيرا وتأويلا لآي القرآن الكريم .

ثالثا : لهجات القبائل

اللهجة [13] هي مجموعة من الصفات اللغوية ، تنتمي إلى بيئة خاصة ، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة و قد عرفت اللغة العربية اختلاف اللهجات منذ العصر الجاهلي ، فكان لكل قبيلة من قبائل العرب الكبرى لهجتها المختلفة عن لهجات سائر القبائل ، إلا أن هذه الاختلافات يسيرة فقد كانت كل المفردات والتعابير بالعربية مفهومة وقت مجيء الإسلام ، وإن خفيت تعابير قبيلة أحيانا على فرد أو أفراد لقبيلة أخرى إنما لعدم الاحتكاك أو لبعد المسافة وعدم الاختلاط ، وهذه المفردات قليلة ، واللغات أو اللهجات العربية جاءت من شمال الجزيرة العربية من قبائل شتى هي قريش وتميم وثقيف وبني حنيفة وبني عامر وقيس عيلان وهذيل ، كما جاءت من قبائل الجنوب كأزد شنوءة ، وأشعر والأوس والخزرج وحمير وحضر موت وخزاعة والخزرج وطيء .

واللهجات العربية موجودة في القرآن الكريم بدليل أن كل قبيلة من قبائل العرب كان علماؤها يفخرون على غيرهم بأن القرآن أحكى للغتهم عن غيره ، كما ذكر الجاحظ : " قال أهل مكة للشاعر محمد بن مناذر ليست لكم أهل البصرة لغة فصيحة ، إنما الفصاحة لنا أهل مكة قال ابن مناذر : أما ألفاظنا فأحكى لألفاظ القرآن، وأكثرها موافقة له ، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم ، ثم قال : أنتم تسمون القدر : برمة ، وتجمعونها على بُرُم ، ونحن نقول قدر وقدور وقال الله سبحانه وتعالى :" وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ " [سبأ: الآية 13]... فعد عشر كلمات لم أحفظ أنا منها إلا هذا" [14] .

أشار أغلب اللغويين القدامى إلى أن القرآن الكريم وإن نزل بلهجة قريش إلا أن فيه من لهجات القبائل التي كانت تقطن شبه جزيرة العرب ، وإنما كانت الشهرة للغة قريش ، التي نزل بها القرآن الكريم لمزايا اختصت بها .وهذه اللهجات التي لازمت لغة قريش ، ونزل بها القرآن الكريم كانت غريبة على بعض القرشيين والمحيطين بهم . ولابد من الإشارة إلى دور ابن عباس في تحديد نسبة ما أخذ القرآن الكريم من مفردات كل قبيلة من تلك القبائل . وإلقاء الضوء على هذه اللغات وما وصل إلينا في هذا الجانب رسالة صغيرة في لغات القرآن برواية ابن حسنون بإسناده إلى ابن عباس ، وقد قدمها وحققها وعلق عليها توفيق محمد شاهين، والرسالة مرتبة على سور القرآن الكريم ، يورد فيها مؤلفها ما في كل سورة من لغات و لهجات عربية والنماذج الآتية شيء مما ورد في هذا السبيل :

الصاعقة هي الموت بلغة : عُمان .

– وباءَ : بمعنى استوجب

- والأماني : هي الأباطيل في لغة قريش
- واشتروا : أي باعوا بلغة هذيل
- البغي :هو الحسد عند تميم
- نحلة : فريضة في لهجة قيس عيلان
- عيلة : فاقة بلغة عُمان [15]

شك بعض العلماء في نسبة هذه الرسالة إلى ابن عباس إلا أن الراجح عند كثير من العلماء أنها له ، لورود كثير مما فيها من نصوص في كتب التراث ولنقل السيوطي جل ما فيها في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" ويمكن القول أن عناية ابن عباس بتفسير القرآن وتأويله وحل مشكله يجعل صدور هذه الملاحظات اللهجية عنه أمرا عاديا ومتوقعا .

رابعا : المعرب

اختلف علماء العربية القدامى حول وقوع المعرب في القرآن الكريم والأكثر يرون عدم وقوعه ومنهم الإمام الشافعي وابن جرير و أبو عبيدة والقاضي أبوبكر وابن فارس ،ويستدلون بذلك في قوله تعالى :"قرآنا عربيا " وذهب آخرون إلى وقوعه فيه، و أجابوا عن قوله تعالى " قُرْآنًا عَرَبِيًا "[سورة يوسف الآية:2] بأن الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرجه عن كونه عربيا[16] .

يعد ابن عباس أول القائلين بوقوع المعرب في القرآن الكريم ، ونقل عنه أئمة اللغة والتفسير الكثير في ذلك ، وتضمنت رسالة "اللغات في القرآن " المنسوبة إليه عدد من مفردات ذكر أنها من لغات غير عربية ، وكان يشير إليها بذكر مقابلها في اللغة العربية كقوله : وافقت لغة النبط أو لغة الفرس أو لغة حبشة ونحو ذلك

وفيما يلي نماذج مختصرة مما أثر عن ابن عباس في المعرب :

روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى " فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَة " [سورة المدثر الآية 51]، فقال هو بالعربية الأسد ، وبالفارسية شار ، وبالنبطية أريا وبالحبشة قسورة[17].

قال : " الكفل" النصيب ، وهي بلغة وافقت النبطية ، مثل قوله عز وجل : "يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ " [سورة : الحديد الآية]،يعني نصيبين بلغة وافقت النبطية[18] .

قال أن الاستبرق هو الديباج الغليظ بلغة توافق لغة الفرس ، كماذكر أن "قطنا " كتابنا بلغة القبط أو النبط . و"مقاليد" مفاتيح وافقت لغة الفرس ، والأنباط والحبشة .

اليم : البحر بالسريانية أو القبطية أو العبرانية [19]

الاشتقاق :

الاشتقاق من أهم وسائل النمو اللغوي وقد أفادت اللغة العربية كثيرا عبر تاريخها من الاشتقاق فساعدها على تجديد ثروتها اللفظية والمصطلحية بعد مجيء الإسلام ، واهتم علماءنا القدامى كثيرا بظاهرة الاشتقاق كالسيوطي وابن جني و غيرهما ، فألفوا فيه وميزوا بين أنواعه وحددوا شروطه ، و لم تخف هذه الظاهرة اللغوية على ابن عباس، فكان يعي أن المشتق فرع مأخوذ من لفظ أصلي يتفق كلاهما في معنى ، ومن الأمثلة على ذلك ما أورده السيوطي عن ابن عباس: "أنه دخل على معاوية، وعنده عمرو بن العاص، فقال عمرو: إن قريشاً تزعم أنك أعلمها؛ فلم سميت قريش قريشا؟ قال ابن عباس: بأمر بيّن، فسره لنا. ففسره، قال: هل قال أحد فيه شعراً؟ قال: نعم سمّيت قريش بدابة في البحر.

وأخرج ابن عساكر في تاريخه من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن أبي ريحانة العامري قال: قال معاوية لابن عباس: لم سميت قريش قريشاً؟ قال: بدابة تكون في البحر من أعظم دوابه، يقال لها القرِش، لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته"[20]

وفي تفسيره لقوله تعالى : " اسْمُهُ الْمَسِيحُ " قال : سمي مسيحا لأنه كان أمسح الرجل ، لم يكن لرجله أخمص ، والأخمص مالا يمس الأرض من باطن الرجل " ، وفي رواية أخرى ذكر أنه " سمي مسيحا لأنه كان لا يمسح بيده ذا عاهة إلا برأ " [21].

وفي قول تعالى :" يَا آدَم "[البقرة الآية33] قال ابن عباس: "إنما سمي آدم بهذا الاسم لأنه تعالى خلقه من أديم الأرض كلها أحمرها وأسودها وطيبها وخبيثها".وفي حواء قال ابن عباس:" إنما سميت بحواء لأنها خلقت من ضلع من أضلاع آدم فكانت مخلوقة من شيء حي"22.

و ذكر أن الإنسان سمي بذلك " لأنه عهد إليه فنسى "، كما رأى أن الناس أيضا من نسي [23].

المشترك اللفظي :

المشترك اللفظي وهو أن يكون للكلمة الواحدة عدة معان تطلق كل منها على سبيل الحقيقة لا المجاز ، وقد عرفه أهل الأصول بأنه " اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر ، دلالة على سواء عند أهل اللغة " ، وقد أشار ابن عباس إلى هذا النوع من المفردات منذ وقت مبكر، فكان عندما يصادف كلمة تتوفر على معنيين أو أكثر أثناء تفاسيره لآي القرآن الكريم لا يجد مانعا في ذكر جميع ما تحمل من معاني على النحو الآتي :

" ففي تفسيره للآية : " إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَام "[سورة الأنفال الآية: 11] ،قال ابن عباس النعاس في القتال أمنة من الله ، وفي الصلاة وسوسة من الشيطان[24] .

وفي قوله تعالى :" وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ"[فصلت الآية : 34]، قال ابن عباس :"بالتي هي أحسن" الصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل،والعفو عند الإساءة [25].

الأضداد :

الأضداد عند اللغويين هو أن يقع اللفظ على معنى وضده ، نحو " الصريم " ، يطلق على الليل والنهار لأن كل واحد منهما يتصرم من صاحبه ، " والوامق " للمُحِب والمحَب ،ويمثل ظاهرة قليلة الحدوث في اللغات عموما ، وتبرز في اللغة العربية ، وقد ألف في الأضداد عدد من علماء العربية منهم قطرب ، والأصمعي ، وأبو الطيب اللغوي و ابن الأنباري ، ويعد كتاب ابن الأنباري " الأضداد " أشهر الكتب التي ألفت في هذا المجال على الإطلاق[26] .

انتبه ابن عباس إلى وجود هذه الظاهرة في اللغة العربية منذ وقت مبكر ،فذكر أن معنى عطاء في الآية الكريمة " كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا" [الإسراء الآية :20] هو من الطاعات لمريد الآخرة ، والمعاصي لمريد العاجلة ، فيكون العطاء عبارة عما قسم الله للعبد من خير وشر [27].

كما أن معنى "الظن " قد يكون شكا ، و قد يكون يقينا ، فمن الشك قوله عز وجل " مَا نَدْرِي السَّاعَةَ إِن نَظُنُّ إِلا ظنا " فهؤلاء الشكاك ، ومن اليقين قال ابن عباس في قوله عز وجل "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ "

[البقرة ، الآية :46] أي يعلمون ، وكذلك " ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ"[فصلت الآية:] أي علموا . لأن الله تعالى لا يمدح الشكاك [28].

ومن الأضداد " عسى " قال الله تعالى : "عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا" [الإسراء الآية:8]، وعسى في القرآن الكريم واجبة من الله [29]

النحو:

النحو أصل العلوم العربية ، وأقدمها نشأة وأغزرها مادة وتأليفا ، وقد كتبت بحوث كثيرة عن نشأته وتاريخه قديما وحديثا وقد نشأ هذا العلم بسبب تسرب وتفشي اللحن على ألسنة العرب بعد الفتوحات الإسلامية وكثرة الداخلين في الإسلام من الأمم غير العرب وفي هذا الصدد ذكر أبوبكر الزبيدي " لم تزل العرب تنطق على سجيتها في صدر إسلامها وماضي جاهليتها ، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان ، ودخل الناس فيه أفواجا ، وأقبلوا إليه إرسالا ، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة واللغات المختلفة ، ففشا الفساد في اللغة العربية ، واستبان في الإعراب الذي هو حليتها ، والموضح لمعانيها ، فتفطن لذلك من نافر بطباعة سوء أفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب ، فعظم الأشفاق من فشو ذلك وغلبته ، حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم ، إلى أن سببوا الأسباب في تقيدها لمن ضاعت عليه ، وتثقيفها لمن زاغت عنده ، فكان أول من أصل ذلك وأعمل فكره فيه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي "[30] .

ويذهب أغلب اللغويين والمؤرخين لعلم اللغة أن أبا الأسود الدؤلي هو أول من رسم النحو ، ويقول محمد بن سلام الجمحي بسبق أبي الأسود في وضح النحو فيذكر أنه " كان لأهل البصرة في العربية قُدمة ، وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية ، وكان أول من أسس العربية وفتح بابها ، وأنهج سبيلها ، ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي ..." [31].

وتذهب عدة روايات أن أبا الأسود الدؤلي قام بتأسيس هذا العلم بإشارة من علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فقد حكى عن أبي العباس محمد يزيد قوله : سئل أبو الأسود الدؤلي عمن فتح له الطريق إلى وضع في النحو وأرشده إليه ؟ فقال : تلقيته من علي بن أبي طالب رحمه الله "[32].

جاء في مصادر أخرى" أن علي بن أبي طالب ألقى إلى أبي الأسود صحيفة أو رقعة فيها الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن مسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم لا فعل ..."[33].

يتضح من هذه النصوص أن لعلي بن أبي طالب دورا في تأسيس النحو كما قام أبو الأسود بتوسيع تفاصيل هذا العلم بالبحث في عدة أبوابه ، إلا أن هناك من علماء العربية من يشرك عبد الله ابن عباس رضي الله عنه في هذه العملية ، قال القفطي :" وأتى أبو الأسود عبد الله بن عباس فقال : إني أرى ألسنة العرب قد فسدت فأردت أن أضع شيئا لهم يقومون به ألسنتهم ، قال : لعلك تريد النحو؟ أما إنه حق "[34] .والظاهر من هذا النص أن ابن عباس كان على علم بالنحو ومما يؤكد ذلك ما أورده شيخ اللغويين ابن جني في كتابه الخصائص باب في صدق النقلة وثقة الرواة والحملة في قوله :" هذا موضع من هذا الأمر ، لا يعرف صحته إلا من تصور أحوال السلف فيه ، وتصورهم ورآهم من الوقور والجلالة بأعينهم ، واعتقد في هذا العلم الكريم ما يجب اعتقاده له ، وعلم أنه لم يوفق لاختراعه وابتداء قوانينه وأوضاعه إلا البر عند الله سبحانه الحفيظ بما نوه به وأعلا شأنه ، أولا يعلم أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه هو البادئ به ، والمنبه عليه ، والمنشئ والمرشد إليه ، ثم تحقق ابن عباس رضي الله عنه به ، واكتفال أبي الأسود رحمه الله إياه "[35] .

إن ما تقدم عرضه من نصوص ، وما حوته من آراء دليل على أن علم النحو ظهرت إرهاصاته في عهد علي بن أبي طالب ، كما أن بعض العلماء يقحم ابن عباس في وضع أسس هذا العلم مع أبي الأسود الدؤلي ، ولا غرابة في ذلك ،فما ورد عن ابن عباس من ملاحظات نحوية يؤكد إحاطته باللغة العربية ودقائقها، وفيما يلي عرض لبعض من هذه الملاحظات :

*روي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما قرأ " وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ[الزخرف ،الآية]قرأها بالترخيم ، "ونادوا يا مال ليقضى علينا ربك"، أنكر عليه ابن عباس فقال : " ما أشغل أهل النار في النار عن الترخيم في النداء [36]، فقال صدقت .وعلق ياقوت على هذه الرواية " فهذا يدل على تحقق الصحابة بالنحو وعلمهم به[37].

* ذكر ابن عباس أن "هل " قد تأتي بمعنى "قد" وأيده من النحاة الكسائي والفراء والمبرد قال في مقتضبه :" أن هل تخرج من حد المسألة فتصير بمنزلة" قد" نحو قوله تعالى " هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا " [الإنسان : الآية 1][38].

* وروى عنه أنه ذكر أن "إن" أتت في هذه الآية :" قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ " [الزخرف الآية:81] أتت نافية بمعنى "ما" [39].

* استدلال ابن جريج برأي ابن عباس حول ورود اسم الإشارة "ذلك" بمعنى "هذا" في تفسيره للآية " ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ" [البقرة الآية : 2]، قال ابن عباس : ذلك الكتاب أي هذا الكتاب وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد ابن جبير والسدي ومقاتل بن حيان وابن جريج أن ذلك بمعنى هذا ، والعرب تقارض بين اسمي الإشارة فيستعملون كلا منهما مكان الآخر[40] .

* رأي ابن عباس في "مسألة حذف المضاف والدلالة عليه من خارج الآية كما في قوله تعالى: " وَجَاءَ رَبُّكَ "[الفجر الآية22]، قال ابن عباس: "وجاء أمر ربك" ، لأن القيامة تظهر جلائل آيات الله تعالى [41].

* قدر ابن عباس التقديم والتأخير في قوله عزّ وجلّ: "أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ " [الأنبياء الآية : 43]قال أبو حيان: " قال ابن عباس: في الكلام تقديم وتأخير تقديره: أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم[42].

هذه الملاحظات اللغوية كان ابن عباس يوردها ضمن تفاسيره ، وهي تدل على حسه اللغوي العام السليم وإلمامه بالعربية.

ومن النظم البلاغي في القرآن الكريم معرفة ابن عباس بالكناية ، و لم يكن يخفى عليه هذا النظم ، فذكر أن الله سبحانه وتعالى يكني حينما فسر معنى " ثمر " بالمال الكثير في الآية الكريمة " وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ " [الكهف ، الآية :43] [43]، وكذلك في قوله تعالى :" أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ" [النساء،الآية43]،قال ابن عباس : هو الجماع ولكن الله يعف ويكني [44].

أما عن منهجية التعليم فقد سبق ابن عباس العصر الحديث إذ كان يعلم تلامذته كيفية التلقي سماعا وكتابة وكان يوصيهم بالمذاكرة والحفظ في قوله :" ردُوا الحديث واستذكروه فإن لم تذكروه ذهب" [45] ، كما كان يحاضر تلامذته كل يوم مادة وتلك بدايات التخصص عند تلامذته ، فنجد بعضهم برع في التفسير خاصة وبعضهم في الفقه ، وبعضهم في الأدب ، إلى آخر ما هنالك من فنون المعرفة التي كان ابن عباس يحاضر فيها ، قال عطاء بن رباح :" ما رأيت مجلسا أكرم من مجلس ابن عباس ، ولا أعظم جفنة ، ولا أكثر علما ، أصحاب القرآن في ناحية ، وأصحاب الفقه في ناحية ، وأصحاب الشعر في ناحية ، يوردهم في واد رحب "[46]. وهو بحق يسعنا أن نجعله العالم الموسوعي في رأس قائمة أصحاب

التنظيم الدراسي يومئذ ، إذ لم يكن معروفاً لدى الصحابة في عصرهم من يدعو إلى منهج الاختصاص الذي تدعو إليه المناهج الحديثة .

إن المتتبع لسيرة عبدالله بن عباس حبر الأمة وبحر التأويل يجد أن الكثير من العلماء المسلمين أثنوا عليه وعلى علمه ، وأقوالهم في ذلك يصعب حصرها لذا كان علينا أن نذكر طرفا مما روي عنه فيما يخص بعض مسائل اللغة العربية ، والتي كانت عبارة عن ملاحظات وارشادات وتنبيهات وردت مبثوثة في كتب اللغة والتفاسير ، فعنايته بالقرآن الكريم ولغته مهدت الطريق لنشأة الدراسات اللغوية بمختلف فروعها ،إذ يعد هذا النص المقدس هو المحور الذي دارت حوله تلك الدراسات المختلفة سواءٌ منها تلك الدراسات التي تتعلق تعلقاً مباشراً بتفسير القرآن الكريم، وتوضيح آياته وتبيين معناه، واستنباط أحكام الشريعة منه، أو تلك التي تخدم هذه الأغراض جميعها بالبحث في الدلالة اللفظية واشتقاق المفردات، وتركيب الجمل نحوياً، والأسلوب والصور الكلامية واختلافها.كل هذه الدراسات قامت أساساً لخدمة الدين الإسلامي ولغرض فهم القرآن الكريم مصدر التشريع الإسلامي ودستور المسلمين .

لقد اتصل الدين باللغة اتصالاً وثيقاً في العصور الإسلامية كلها، وكان الباعث على اهتمام علماء اللغة بجمع الشواهد اللغوية وتقعيد اللغة هو ضبط نصوص القرآن الكريم، لذا تبقى اللغة العربية بكل مسائلها مدينة بالفضل للقرآن الكريم ، لأنه حفظ سرها وأدام كيانها.

الهوامش

---

[1]القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ـــ دار الفكر ، مجلد الأول ص 40 .

[2]غانم حمد قدوري أبحاث في العربية الفصحى دار عمار الأردن نقلا عن أبي العلاء العطار التمهيد في معرفة التجويد.

[3] محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، مؤسسة الرسالة،2001، ج4 ص447

[4]البخاري ، صحيح البخاري ، 29

[5]محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، سير أعلام النبلاء ،ج 3/ ص 352

[6] م ، ن ، ج448/4

[7] ابن فارس ، الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها ،تح عمر فاروق الضباع ، مكتبة المعارف 1993، ط 1/ ص 26

[8] جلال الدين السيوطي المزهر في علوم اللغة و أنواعها شرح : أحمد جاد المولى منشورات المكتبة بيروت ج3/

[9] جلال الدين السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية بيروت ،2006، ط1/ ص 302

[10] م ،ن ، ص 302.

[11]ينظر : السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، ص 303 ..327.

[12]فؤاد سزكين ، تاريخ التراث العربي ،الهيئة المصرية ،1981، ج1/ص97.

[13] أطلق علماؤنا العرب القدامى مصطلح اللغة ،وهم يعنون به اللهجة.

[14] الجاحظ ، البيان والتبيين ، تح: درويش الجويدي ، المكتبة العصرية ، بيروت ،2002، ص19

[15] ينظر : اللغات في القرآن ، رواية ابن حسنون المقرئ المصري بإسناده إلى ابن عباس تح : توفيق محمد شاهين ، مكتبة وهبة ، ط1/1995

[16] ينظر السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ص 339.

[17] ابن جرير الطبري ،جامع البيان لأحكام القرآن ، ج1/ ص 31.

[18] اللغات في القرآن ، رواية ابن حسنون بإسناده إلى ابن عباس ص22

[19] ينظر: م ، ن

[20] السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، ج1 / 344-345

[21] أبو زكريا يحي بن زياد الفراء ، معاني القرآن ،عالم الكتب ،ط1983،3، ج2 /ص 426.

[22]فخر الدين محمد بن عمر الرازي ، تفسير فخر الرازي، دار الفكر ،بيروت ،ط1981. ج161/9.

[23] مادة (أنس) مختار الصحاح للرازي، تح : محمد خاطر ،مكتبة لبنان للناشرون- بيروت طبعة جديدة .

[24] تفسير الطبري ، محمد ابن جرير الطبري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ج2/ص 7

[25] تفسير الطبري ، محمد ابن جرير الطبري ، ج2/ ص 72

[26] ينظر :ابن الأنباري ، الأضداد ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ،1987

أبو حيان ، تفسير بحر المحيط ، تح : عادل أحمد عبد الموجود و آخرون ، دار الكتب العلمية ، لبنان ط1،

[27]1993، ج6/ص19.

[28] أبو الطيب اللغوي ، الأضداد في كلام العرب تح : عزة حسن ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ط2، 1996،ص378

[29] أبو الطيب اللغوي ، الأضداد في كلام العرب ، ص 433

[30]أبو بكر الزبيدي طبقات النحويين واللغويين ، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، ط2 ، ص11

[31]ابن سلام الجمحي ، طبقات الشعراء ص5،

[32] أبوبكر الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ، ص 11

[33]علي بن يوسف القفطي ، إنباه النحاة ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم' دار الكتب المصرية ، مصر ج1/ ص50

[34]م ، ن ج1/ ص50

[35] ابن جني ، الخصائص ، تح : محمد علي النجار ، دار الكتب المصرية ج

[36]ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،1993، ج1/ص 17.

[37] ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج 1 / ص17

[38] المبرد ، المقتضب ، تح : محمد عبد الخالق عضيمة ، وزارة الأوقاف القاهرة، ط3- 1994 ، ج3/ص289.

[39]الفراء ، معاني القرآن ج2 ص 393.

[40] ابن كثير ، تفسير القرآن الكريم ، تح : محمد السيد محمد و آخرون ،مؤسسة قرطبة ط1-2000 ج1 ص

[41] أبو حيان ، تفسير بحر المحيط ج164/6

[42] م ، ن ج314/6

[43] ابن أبي شيبة ، المصنف ،ج1، ص78

[44] مادة (لمس)، ابن منظور، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ،ط2004/3 .

[45] الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، تح: أبو عبدالرحمن عادل ، المكتبة القومية الإسلامية ، ج2/ص 183

[46] م ، ن ، ج1 /57.